التاريخ والمستقبل عند الشيخ عدون

الأستاذ الدكتور إبراهيم بكير بحاز
كلية العلوم الإنسانية/قسم التاريخ /جامعة منتوري قسنطينة
Email : bahazhistory@yahoo.com

تمهيد:

أوّلا: التاريخ عند الشيخ عدّون

1 - أهمّيّة التاريخ عند الشيخ عدون
2 - الشيخ عدّون مدرّس التاريخ:
3 - كتابة التاريخ عند الشيخ عدّون

ثانيا: المستقبل عند الشيخ عدّون:

1 - فلسفة المستقبل عند الشيخ عدّون
2 - الشيخ عدون: مستقبل الجزائر والمسلمين في وحدتهم
3 - التجديد والتغيير، وروح المبادرة عند الشيخ عدّون
4 - المستقبل ومعهد الحياة
5 - الشيخ عدّون ومستقبل الفتاة

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ والمستقبل عند الشيخ عدون

تمهيد:

لم أكن أعلم أنّ الشيخ كتب كلّ ذلك العدد (أكثر من 130 مقالا) من المقالات؛ فضلا عن كتابه: "معهد الحياة"، ولم أكن أعلم أنّ الذي كُتب عنه يبلغ ذلك العدد. ولقد حاولت استيعاب ما كَتَب وما كُتِب عنه قراءة، لا أقول مستفيضة متأنّية، بل كانت على عجل؛ باحثا عن عنوان أشارك به في ملتقانا هذا، ففكّرت أوّلا في عنوان تعوّدته هو: التاريخ عند الشيخ عدّون، كما فعلت سابقا مع الشيخ عبد الرحمن بكلّي البكري ومع الشيخ حمّو فخّار –رحمهما الله–، ثم بعد ذلك قلت: لعلّي أكتب عن تاريخ المستقبل عند الشيخ عدّون، إلاّ أنّني في النهاية رأيت أنّ أحسن ما يمكن أن أكتب فيه هو التاريخ والمستقبل عند الشيخ عدّون، وذلك انطلاقا من القراءة الأوّليّة السريعة لما كتبه وما كُتب عنه وما ترك من آثار استطعت أن أصل إليها.

إنّ الشيخ عدّون أعطى للمستقبل أكثر من ثمانين عاما من حياته الجهاديّة؛ لتستمرّ آراؤُه في ذلك وإنجازاتُه إلى ما شاء الله، وأعطى للتاريخ والتّأريخ مجالا من حياته؛ حثّا على استيعابه بالنسبة للأوّل وتحريرا للثاني بأمانة تاريخيّة فريدة، أي أنّه حرّر (أرّخ) الماضي لكي يحافظ على التاريخ.

ولا بأس في هذا التمهيد أن ننطلق في فكر الشيخ عدّون في التاريخ والمستقبل؛ من مقالة له بجريدة النور اليقظانيّة، تحت عنوان: "التسويف ومثال المفرّطين" يقول فيها:

إنّ المرء بين أزمنة ثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فالماضي قد انقضى وانفلت من بين يديه؛ بما فيه من خير وشر، من اجتهاد وبطالة، من سعادة وشقاء. والمستقبل لا يزال بين يدي الله؛ لا يدري أيتمّكن منه، فلا يعلم أينتهزه ويعمره بما يجب أن يعمّر، أم يتفلّت منه فارغا؛ فيضيّعه ويخسره. والحاضر هو الذي يملكه، يتصرف فيه كيف يشاء، فيجب أن لا يَشْغَلَه إلا بما يُبهجه ويغتبط به إذا صار ماضيا.

ما مضى فات والمؤمّل غيب ولك الساعةُ التي أنت فيها

والمتسوف حاد عن هذا الواجب وعكس الآية وقلب القضية حيث اشتغل بالندم والتأسّف والتحسّر على ماضيه المنفلت من بين يديه ولم يحصل منه شيئا، وبالأماني المعسولة والرجاء الفارغ في المستقبل الغائب. فصار هذا

الحاضر الذي يجب أن يُشْغَل بالعمل الصالح والسعي النافع المجدي مشغولا بالأسف على الماضي والرجاء في المستقبل، فالحاضر سيصير ماضيا فيتأسف عليه؛ لأنّ تسويفه أضاعه منه ونكبّه فيه، والمستقبل سيصير حاضرا فيتأسف فيه على ماضيه ويرجو مستقبله ويسوّف العمل الواجب عليه فيه، فكانت أعماله لا تخرج عن دائرة التأسف والحزن المستمر والأماني الباطلة ليتأسف فالشقاء ملازم له في كل وقت وحين مهما توالت الظروف واختلفت الأزمان، فيكفي هذا الألم المستمر والشقاء الدائم عقابا للمفرّطين المتساوفين.

وبين هذا وذاك تختلف مراتب الناس في الحياة ما بين كامل وأكمل وناقص وأنقص.

بهذه الافتتاحيّة الرائعة أبدأ مداخلتي عن التاريخ والمستقبل عند الشيخ عدّون.

وبداية أنبّه إلى أنّ هناك فرقا واضحا بين الماضي والتاريخ، فالذي أريده هو التاريخ وبه أبدأ.

أوّلا: التاريخ عند الشيخ عدّون:

1- أهمّيّة التاريخ عند الشيخ عدون:

يتحدّث الشيخ عن خصائص الشعب الجزائري فيقول في مقال له بجريدة النور تحت عنوان: هذه خصائصنا، فهل آن لنا أن نعرف كيف نستثمرها؟:

«لم نؤت معشر الجزائريّين من ناحية من النواحي التي تسرّبت إلينا منها عوامل الضعف مثلما أوتينا من ناحية إنكار ذاتيّتنا واستصغار نفوسنا وعدم الاعتداد بكرامتها»[1].

ثم يضيف: «إنّ **لنا** دينا هو منبع كلّ عظمة وكلّ عزّ ...،

ولنا قوميّة ملأت التاريخ مجدا وكرما والنفوس شهامة وإباء وعظمة، بالانتماء إليها يعتزّ المعتزّون ويفتخر المفتخرون.

ولنا **تاريخ ذهبيّ** يشهد لأسلافنا الأماجد من العظمة والنبوغ، وما لهم من آثار مذكورة ومساع مشهورة وأعمال مشكورة، وأياد بيضاء خلّدت أسماءهم في بطون التواريخ، وأكسبتهم ذكرا عاطرا وصيتا طائرا.

ولنا وطن غني بمحصولاته سخي بمنتجاته خصب التربة طيب المناخ قد توفرت في غالب جهاته وسائل العيش والرخاء وله أهميته العظمى ومركزه الأسمى وشهرته الفائقة في العالم الاقتصادي.

ولنا لغة غنية بمواردها ومفرداتها، راقية بأسلوبها الجميل، هي سلم رقي أسلافنا قديما، ولا نطمع الآن نحن في رقي من غير طريقها ...

---

(1) – جريدة النور، عدد 18.

ولنا في ذات نفوسنا مواهب فطرية ومزايا موروثة واستعدادا كاملا لتحقيق كل غرض جليل ابتغيناه وكل غاية شريفة التمسناها»[2].

هذه الأهمّيّة التي يوليها الشيخ للتاريخ؛ تَبرز أيضا في مقال له بمجلّة الأمّة؛ جاء فيها:

«بتتبع تاريخ هذه الأمة في خروجها من العدم إلى الوجود وفي نشأتها وتطورها، ودرس سيرة رجالها العظام وتحليل نفسيّاتهم، يمتلئ القلب إيمانا ونورا، فلا يتركان فيه لضعف العقيدة ولظلمة الإياس آثرا ويستحيل عقلا أن يجتمع الضعف والقوة والظلمة والنور في محل واحد.

ومن يرغب عن هذا التاريخ العظيم المدهش الذي فيه تفصيل لكلّ شيء ودليل لكل محتار وشفاء لكل داء، إلاّ من سفه نفسه ودسّاها. ومن يدرك هذا الحوض الفيّاض ولا يصدر عنه بقلب ينبض إيمانا ونفسٍ تختال شيما وإباء، وعقل يضيء حكمة وعلما ويشع سدادا وتوفيقا، إلا من أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة؟

ما لنا نضرب الأمثال ونستنهض الهمم بنهضات الأمم الأجنبية ونحن نسل هذه الأمة التي أدهشت هذه الأمم بخوارقها ومدهشاتها وعلمتهم كيف ينهضون وكيف يعيشون وكيف يحيون الحياة الطيبة؟ ما لنا نستقي من ماء كدرته الأهواء السياسية»[3].

ويتطرّق إلى آفة الإياس الفتّاكة، كيف السبيل لتطهير مجتمعنا منها، فيؤكّد أنّه «... لا سبيل لعلاج هذا المرض المنتشر بيننا والمتمكن في كثير من النفوس إلا بتقوية الإيمان فيها وترديد النظر في تاريخ الأمم الغابرة والحاضرة ودرس حياتها وأطوارها وتقلّباتها والمثل الأعلى في هذا هي الأمة الإسلامية التي أعطت للأمم الضعيفة المنحطة أعظم الدروس في تاريخ النهضات والانقلابات الخطيرة وأرتهم كيف يصير العبد سيدا والمملوك مالكا والقوي ضعيفا والمنحط راقيا. وعلّمتهم كيف يكون الإنسان عزيز أبيّا كاملا في إنسانيته قويا في رجوليّته كريما في نفسه»[4].

وفي جريدة النور؛ يطرح الشيخ وبقوّة أهمّيّة التاريخ بالنسبة للجزائريّ، من خلال "كتاب الجزائر" للأستاذ المرحوم: أحمد توفيق المدني، فيقول مخاطبا كلّ جزائريّ: «على كل جزائري تقلّه أرض الجزائر وتظلّه سماؤها حقّ معلوم يتقاضاه منه وطنه العزيز الذي يمثله هذا الكتاب الخطير الشأن ويطالبه بالوفاء به مطالبة الغريم لمدينه. فإن وفّى بدينه فقد أبرأ ذمته وارتفعت عنه التبعة وإلا فهو مشغول الذمة متبوع بهذا الدين المستحق. ومن نام عنه وفي استطاعته الوفاء أولم يعترف به أصلا كان خاليا من كل ذمة وشرف فاقدا لمحبة وطنه الذي يستمد منه نعمة الحياة.

---

(2) – نفسه.

(3) – نفسه.

(4) – مجلّة الأمّة، عدد 89، ص13.

إنّ الواجب يقضي على كل جزائري أن يقتنع بضرورة احتياجه إلى هذا الكتاب، كما هو مقتنع بضرورة احتياجه إلى مقومات حياته. فإنّه إذا كانت وظيفة هذه المقومات تغذية الجسم ليتمكن بها من الحياة الجسمية، فوظيفة هذا النوع من التاريخ الذي ينظم هذه الحياة وينير سبيلها ويجعلها صالحة لتأدية ما يطلب منها من كل كمال إنساني. وإذا كنت أيها الجزائري تسعى بسائق الضرورة إلى اكتساب ما تغذي به جسمك فأحرى بك أن تسعى بمثل هذا السائق إلى اقتناء هذا الكتاب ومطالعته برويّة وإمعان واتخاذه نبراسا في حياتك المظلمة فاستغناؤك عنه وإهمالك إياه معناه الرضى بحياة تعسة في سجن مؤبد تسام فيه سوء العذاب وتتجرع فيه غصص الموت.

عار وأيم الله، شنيع أن يجهل الجزائري تاريخ وطن عُجِنت طينته بدم أسلافه الكرام وضم بين حناياه رفات آبائه الأمجاد لا يعرف شيئا عن تطوراته ولا عن حياة الذين نشئوا فيه وتقلبوا في أطواره وتركوا ذكرا عاطرا ولسان صدق في الآخرين فعاش فيه كمهاجر غريب منقطع الصلة عنهم كأنه لا تربطه بهم رابطة الجنس والدين ولا تلحم بينه وبينهم وشيجة الرحم.

... إن على كل جزائري نحو هذا الكتاب واجبين؛ واجب الاستفادة وواجب الاقتناء»[5].

ثم يواصل تفسير أهمّيّة التاريخ، ويوضّح المحتوى العام لكتاب الجزائر المذكور، فيقول: «والكتاب ليس كتابا علميا أو أدبيا أو في فنّ خاصّ حتى يكون خاصا بالطبقة المستنيرة ...، ويستغني عنه سواهم، بل هو دائرة معارف يخص كل جزائري خصوصا عينيا وحاجة غير المستنيرين إليه آكد من حاجة المستنيرين.

أحسن المؤلف الجليل ظنّه بالأمة إلى حد الإفراط بما جُبل عليه من حسن الظن وطهارة السريرة فأعلن طبعه أولا على سفر الكتاب بأنه طبع على نفقة الأمة الجزائرية إقرارا بفضلها واعترافا بجميلها سلفا وحثا ضمنيا على تضامنها لاقتنائه وإقبالها عليه ولم يقتصر على هذا فقط بل قام يعتذر لها في مقام عتبها وتوجيه اللوم عليها، فقال في مستهل الكتاب ملتمسا عذرا لجهلها لحالة بلادها: "ما كان ذلك تنكبا منهم عن طريق المعرفة أو ابتعادا عن الدرس والبحث، وما كان ذلك لقلة شعور فيهم أو لعدم إحساس، تعالوا عن ذلك علوا كبيرا، إنّما هم ما عاشوا ويعيشون جاهلين وطنهم، وأنفسهم مفعمة ألما وحسرة إلا لأنّهم لم يجدوا بين أيديهم وفي متناولهم كتبا تبيّن لهم في لسانهم العربي المبين ما يجب عليهم أن يعرفوه عن هذا الوطن المحبوب". كلاّ أيها المحبوب فالواقع يخالف رأيك هذا تماما وأكثر الأمة يخيبون ظنك، ويأبون إلا الظهور بمظهرهم الحقيقي من التنكّب عن طريق المعرفة والابتعاد عن الدرس والبحث وقلة الشعور وعدم الإحساس. وإلا فما الذي غل أيديهم إلى أعناقهم فلم يمدوها إلى هذا الكتاب الذي يحمل بين دفتيه ما يجب عليهم أن يعرفوه عن وطنهم ولا يسعهم جهله مجال وهو بين أيديهم وفي متناولهم واستطاعتهم»[6].

---

(5) – جريدة النور، عدد 30.

(6) – نفسه.

إنّ هذا الكتاب التاريخي الذي قدّمه للجزائريّين في العهد الاستعماري؛ وبذلك الحماس؛ نجده في عهد الاستقلال يقدّم كتابا مدرسيّا لأحد تلامذته، وهو كتاب "الواضح في التاريخ"، للأستاذ محمّد بن بكير أرشوم. ومما جاء في تقديمه: «وأُلِحُّ على الأساتذة والمعلمين في هذه المدارس وفي غيرها أن يولوا الكتاب ما يستحقّه من التقدير والاعتبار ويقدموه للطالب كمادة موضّحة ومبسوطة... يُهدى لعقول أبنائنا الجائعة إلى تربية إسلامية حقيقية وفي طليعتها التاريخ الإسلامي الذي نشأ منه الدين الحنيف وبصفة خاصة السيرة النبوية العطرة التي هي أساس الكتاب وصلبه. كما يشتمل الكتاب على التاريخ الإباضي الذي أهمله وتناساه كثير من المؤرخين، وإن تعرضوا له؛ ذكروه بصفة مشوهة ..

وأودّ لو يطلع أساتذة المدارس العامة على هذا الكتاب ليتخذوه مرجعا ونموذجا ومنهاجا لهذه المادة الأساسيّة في جميع المدارس»[7].

لقد كان اهتمام الشيخ عدّون بالتاريخ عموما، وبالتاريخ الإسلاميّ خصوصا؛ لأنّه نشأ منه الدين الحنيف. واهتمّ بصفة خاصّة بالسيرة النبويّة، ولا يزال يردّد أهمّيّتها منذ منتصف الثلاثينيّات من القرن الماضي، فكتب مقالا بعنوان: "ذكرى الهجرة عبرة الدهر الخالدة، وآية الله الكبرى، فهل من مدّكر؟"[8]. وأخذ يروي تاريخ الهجرة، ويستخلص منه العبر، يقدّمها سائغة لأبناء أمّته؛ يحثّهم على الأخذ والاستفادة منها.

2- الشيخ عدّون مدرّس التاريخ:

لم يكن الشيخ عدّون أستاذا للتاريخ، ولم يُعرف بذلك، إلاّ أنّه اهتمّ بنوع معيّن من التاريخ له علاقة وطيدة بتخصّصه، وهو تاريخ اللّغة والأدب العربي. لاحظت بعض تلامذته أشاروا إليه إشارة عابرة. فهذا الشيخ محمّد عليّ دبّوز؛ يذكر أنّ الشيخ كان يدرّس النحو في معهد الحياة من مصادره الأولى، كما كان يدرّس الأدب. «وألقى درسا في تاريخ الأدب على ... الطبقتين الأولى والثانية. وقد اختار تاريخ "الأدب العربيّ، للأستاذ أحمد حسن الزيات"، فدرّسه للتلاميذ»[9].

أمّا تلميذه الدكتور مصطفى بن صالح باجو؛ فيذكر دفاع الشيخ المستميت «عن لغة القرآن التي قضى العمر يبني النفوس عليها، ينشّئهم على قواعدها؛ نحوا وصرفا وأدبا وبلاغة وتاريخا وفكرا ...»[10].

وليس لمدرّس اللغة العربيّة ونحوها سوى التاريخ؛ لإبراز قيمتها ونشأتها وتطوّرها وكفاحها ضدّ أعدائها منذ الحركة الشعوبيّة في القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا.

---

(7) – أرشوم محمّد: الواضح في التاريخ. ص4.

(8) – مجلّة الأمّة، عدد 113.

(9) – دبّوز: نهضة الجزائر الحديثة، 3/55-56. وانظر بوحجّام: الشيخ عدّون بأقلام أصدقائه وأبنائه، 4.

(10) – باجو، الشيخ سعيد بن بلحاج شريفي (الشيخ عدون) في الخالدين، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 219.

3- كتابة التاريخ عند الشيخ عدّون:

لقد كتب الشيخ عدّون العديد من المقالات؛ التي ظاهرها الأخلاق والإصلاح، وعمقها ومادّتها التاريخ وعبره. يقول عنه الشيخ أبو اليقظان: «هو بارع مبدع إذا كتب، لاسيما في المواضيع الاجتماعيّة والأخلاقيّة. ويرجع الفضل إليه في تحرير افتتاحيّات جرائدنا، خصوصا: وادي ميزاب، المغرب، النور، الأمّة»[11].

إلاّ أنّ أهمّ ما كتب على الإطلاق وأبرزه؛ كتابه في تاريخ "معهد الحياة، نشأته وتطوّره"[12]. انتهى منه عام 1988، وطبعه في المطبعة العربيّة عام1989، بتقديم تلميذه الدكتور محمّد صالح ناصر، الذي لاحظ أنّ الكتاب جاء « بأسلوب المذكّرات واليوميّات»[13].

وغنِيّ عن البيان أنّ المذكّرات واليوميّات هي نوع من الكتابة التاريخيّة؛ ذات الأهمّيّة القصوى؛ إذا التزم صاحبها الصدق والأمانة، فهي بمثابة المصدر المباشر للأحداث التي أرّخ لها.

يقول الشيخ عدّون في مقدّمة ذلك الكتاب:

«وأمانة التاريخ توجب علينا أن ندرك العاملين في هذه الحركة (يقصد الحركة التعليميّة) والقائمين بها، بما لهم وما عليهم، مؤيّدين كانوا أو معارضين، مع تقديرنا واحترامنا لجانب الواقفين موقف المعارض في طريق هذا الإصلاح، اعتبارا لحسن نواياهم، ونُبْل مقاصدهم، وتقديرا لمقامهم العلميّ، واعترافا بفضلهم في خدمته، وتضحيّاتهم في سبيله حسب ما يرونه طريقا صالحا، يضمن لهم الوصول إلى الهدف النبيل»[14].

لقد كان الشيخ عدّون أمينا في كتابته، دقيقا في ملاحظاته. ومع ذلك؛ لم يسمح لنفسه —وهو الشاهد بما جرى في تلك الحركة التعليميّة- أن ينفرد بالتأريخ، فراح يطلب من تلميذه الأكاديميّ؛ الدكتور محمّد صالح ناصر؛ النظر في مخطوطة الكتاب، وخوّل له أن يضيف ويحذف، أو يقدّم ويؤخّر ما يراه مناسبا لذلك[15]. ويعلّق الدكتور محمّد ناصر على هذه الدقّة في الأمانة التاريخيّة؛ بأنّ الدافع للشيخ عدّون كان «الحرص على ذكر الحقائق التاريخيّة، لا أقلّ ولا أكثر»[16].

ثم يبيّن الشيخ الهدف من هذه الكتابة التاريخيّة، فيقول:

---

(11) — أبو اليقظان: ملحق السير (مخطوط)، ورقة 445، الترجمة رقم 240.

(12) — يبدو أنّ عنوان الكتاب لَمّا كان مخطوطا هو: "نشأة الحركة التعليميّة بوادي ميزاب". وهو عنوان في صميم التاريخ. انظر بوحجّام: الشيخ عدّون، 111.

(13) — عدّون: معهد الحياة، ص6.

(14) — عدّون: نفسه، 13-14.

(15) — بوحجّام: الشيخ عدّون، 111.

(16) — عدّون: معهد الحياة، 6.

«ووصْفُنا لهذا المعهد، وتأريخنا له؛ هو وصف وتأريخ لأبرز جانب من حياة مؤسّسه ومتعّهده، والقائمِ عليه بالتدريس والكفالة والرعاية، زعيم حركة الإصلاح بميزاب، الإمام الشيخ إبراهيم بيّوض –رحمه الله–»[17].

لقد كان الكتاب إذن تاريخا وصفيّا للمعهد، وتاريخا لسيرة الإمام الشيخ بيّوض وحركته الإصلاحيّة. فإلى هذين النوعين من الكتابة التاريخيّة؛ مالَ الشيخ، فضلا عمّا كتبه من مقالات يستنهض بها الهمم، مركّزا على أحداث التاريخ الإسلاميّ بعامّة، وسيرة الرسول[18] وتاريخ الخلفاء الراشدين بخاصّة. يسردها للعبرة، وذلك من باب تاريخ المستقبل. فنجده يدعو إلى الالتفات إلى التاريخ، ويقول: «تصفّح صفحات التاريخ في العهد الماضي منذ عُرِف التاريخ، والتفت يمينا وشِمالا في الوقت الحاضر، ...»[19].

بل إنّه يذكر أهمّيّة التاريخ في القليل النادر جدّا مما كتبه شعرًا. إذ جاء في آخر قصيدة له مطلعها:

هوى أوطاننا فرض علينا وعهد كِتابنا عهد وثيق

إلى أن يقول:

أنرضى بالهوان والتدنّي وأن نحيا كما يحيى الرقيق

وفينا نخوة نعتزّ منها وفينا نجدة منها نفوق

سلوا التاريخ ينبئكم يقينا أليس لقومنا مجد عريق؟![20]

لقد كان الشيخ عدّون في منزلة المراسل لصحف أبي اليقظان. كان يكتب التقارير التي أصبحت كما يقول الدكتور محمّد بوحجّام: «مصادر موثوقة ومهمّة للأحداث والواقعات التي حدثت في ذلك الوقت. وهي لنا اليوم وثائق تاريخيّة مهمّة»[21].

فعلا؛ لقد كان الشيخ عدّون يكتب أحداث زمانه، ويتحرّى الصدق فيها، إيمانا منه بأنّ كتاباته تلك وثائق تاريخيّة بعد مرور الزمن. فقد كان الشيخ يشعر بذلك. فلم يكن يكتب لجيله فحسب، وإنّما كان يكتب للأجيال من بعده، منها من أدركها وأدركته، ومنها من لم يدركها ولم تدركه. ولكنّ كتاباته التي أصبحت تاريخا موثوقا لمرحلة مهمّة من تاريخ الجزائر بعامّة، ومزاب بخاصّة، والإصلاح بصفة أخصّ وأدقّ، هي اليوم وثائق تاريخيّة ناصعة.

كان الشيخ يكتب الأحداث، ويكتب التاريخ، وهو يتطلّع إلى المستقبل بأمل أكيد. كان يتطلّع إلى استقلال الجزائر ووحدة المسلمين وعزّتهم. يقول في مقال له بمجلّة الأمّة:

---

(17) – نفسه، 6.

(18) – نفسه، 14.

(19) – مجلّة الأمّة: عدد 102، ص18.

(20) – النبراس: عدد14.

(21) – بوحجّام: الشيخ عدّون، 129.

«هل تتّخذ الأمة وعلى رأسها علماؤها ورؤساؤها وأولوا الغيرة فيها حدّا فاصلا بين ماض ذهب بما فيه من تقاطع وتدابر وغفلة وإهمال وبين مستقبل تبني فيه حياتها على أساس من الإنصاف والإخلاص للمصلحة العامة والتفاني في سبيلها؟

هل تبرهن على هذا المستقبل المأمول بما تبذله من المساعي في جمع كلمتها وضم جهودها ورفع صوتها بالتشكي والتظلم والتماس الحقوق أمام هذه البعثة النزيهة الغرض النبيلة المقصد؟ إنا منتظرون»[22].

ومن هنا نلج إلى المستقبل عند الشيخ عدّون.

ثانيا: المستقبل عند الشيخ عدّون:

1- فلسفة المستقبل عند الشيخ عدّون:

يقول الدكتور محمّد بوحجّام: «إنّ الشيخ عدّون كان يتحرّك في نقطتين في خطّ مستقيم: نقطة المبادئ الراسخة، ونقطة الأهداف المرسومة الواضحة»[23].

من هنا ندرك أنّ الشيخ بين الماضي والمستقبل دوما في خطّ مستقيم، الماضي الذي يمثّل المبادئ الراسخة من عقيدة ولغة ووطنيّة وتاريخ، والمستقبل الذي يعبّر عنه الشيخ في إحدى مقالاته بجريدة النور بالمطمح الأسمى، فيقول: «مطمح كل إنسان هو الغاية التي يعمل لها والمثل الأعلى الذي يطمح إليه ويسعى للحصول عليه فما من عامل إلا وله في عمله وجهة يرنو إليها وغرضٌ يود تحقيقه، وتختلف هذه الغاية أو هذا المطمح شرفا وخسة عظمة واحتقارا باختلاف أنظار الناس واختلاف عقولهم فقصير النظر ضيّق العقل يقصر نظره على هذه الحياة الفانية وما تستدعيه من مطالب ومرافق ليعيش ويحيا حياة طيبة قد اتخذها مطمحا له حقيرة كانت أو شريفة، وبعيدُ النظر عظيم الهمة يطمح إلى ما هو أسمى من ذلك واشرف، ينظر إلى غاية تقصر عنها الآمال وتتضاءل دونها الغايات يرى هذه الحياة التي اتخذها الناس مطمح أنظارهم، لأجلها يعملون وعليها يتكالبون، وسيلةً لمطمحه الأسمى وغايته العظمى فلا يرى لها قيمة ولا اعتبارا، إلا ما يرى من الوسائل، أما مقصده الوحيد؛ **فهو مرضات الله عز وجل**؛ التي يتوصّل بها إلى الحياة الخالدة والسعادة الأبدية، ذلك هو المطمح الأعلى؛ الذي يجب على كل عاقل أن يعمل له ويتفانى لأجل الوصول إليه، ...»[24].

---

(22) – مجلّة الأمّة، ص24، عنوان المقال: ميزاب يشكو آلاما، وينشد آمالا، ويطالب رجاله ببثّها، أهم فاعلون؟

(23) – بوحجّام: الشيخ عدّون، 13.

(24) – جريدة النور، عدد 9.

ثم يضيف: «ولو أن العاملين من علماء وزعماء ومصلحين توجّهت نحو هذا المطمح الأسمى أنظارُهم وسلِمت من الأغراض الشخصية الدنيئة ضمائرُهم وترفّعوا عن التماس متاع الحياة ومطالبهم الحقيرة لاتّحدت كلمتُهم وتئازرت قواهم وتناصرت أعمالُهم فرفعوا أمّتهم في أمد قصير إلى المحل اللائق بكرامتها وعزتها ولكنّهم أعرضوا عن ذلك المطمح الأسمى فوقع بينهم ما تقاسي الأمة بسببه الأمرين من تحاسد وتباغض وشقاق ونزاع ...»[25].

إنّ الشيخ هنا يتحدّث عن الهدف الأسمى والغاية العليا، وهي رضوان الله تعالى، وهي نظرة مستقبليّة إسلاميّة عميقة وبعيدة جدّا، تضع حدّا للخيال، كما أنّها، في آن واحد، وسيلة قويّة لتحقيق الطموحات التي تأتي دون المطمح الأسمى.

والمستقبل عند الشيخ لا يكون اعتباطا ولا فوضى، وإنّما هو نظام حياة، ترتيب للأولويّات، وضبط للخطوات؛ لأنّه كما يقول: «مما يرشد إليه العقل السليم ويوجبه نظام العمران ويُعرف بالبداهة؛ أن يكون كل عمل جليلا كان أو حقيرا، محسوسا كان أو معقولا، أدبيا كان أو ماديا، خاضعا لنظام الكون متبعا سنن الحياة سالكا سبيلا معينة محدودة المبدإ والغاية، قد اختطها الذهن ورسم معالمها ووضع لها الخيال صورة تامة قبل الشروع فيها. فكل عمل حاد عن مجراه الطبيعي وتنكب عن سبيله الوضعي التحق بالعبثيات وانضمّ إلى أعمال المجانين والممرورين.

كلنا نرى أن الباني لا يَقْدم على وضع أول لبنة في أساس دار إلا إذا اختطّ لها خيالُه صورة كاملة أو وضع لها على نحو الورق مثالا يعين هيئتها وشكلها ويحدد طولها وعرضها وعلوها ويصور بيوتها ومرافقها وبعبارة أَخْصَر: إنّ بداية الصورة الخارجية التي يشرع ... في تأسيسها هي نهاية الصورة الكاملة المرتسمة في الذهن أو في الخريطة.

وإذا رأينا إنسانا شرع في بناء دار لا على صورة معينة مرسومة يعمل بها كما اتّفق لا يدري على أي هيئة تنتهي، فإذًا تَحكم عليه طبعا بالبلبلة والسفه والجنون. إذا كان هذا حكمنا على من عمل في ماله بغير ما تقتضيه الحكمة ويوجبه نظام العمران؛ فكيف يكون حكمنا على من عبث بأعز شيء يملكه بل بعلة وجوده وهي حياته العزيزة أيعيش كما اتفق ويحي رهن الصدف والحوادث ليست له خطة مرسومة يسير عليها ولا غاية معلومة ينتهي إليها يعمد لسوء تصرفه وعدم تبصره إلى حياته التي لم تمنح له إلا ليمتطي بها ذرى المجد وينال بها أعلى منازل الكرامة فيشتتها ويبدّدها فتذهب هباء منثورا لا يظفر منها إلا بما يظفر القابض على الريح.

فتّش في بطون المعاجم كلها ونقب في قواميس اللغات جمعاء، فإنك لا تهتدي على وصف ينطبق على هذا الذي عَجَزَتْ عن الدلالة عليه الأوصاف المعروفة عندنا من حمق وسفه وجنون وما إليها. فتّش جميع الشرائع المنزلة والقوانين الوضعية عللك تظفر فيها بعقاب وضع جزاء وفاقا لهذا السفيه الذي أفلت حياته من يده ووجهه وضاح وثغره باسم، وأحسب أن حظّك من هذه المحاولة الشاقة لا يكون في النهاية غير الإخفاق. ولعل الله الذي لم يفرّط

---

(25) – جريدة النور، عدد 10.

في الكتاب من شيء، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا بيّنها وأرشد إليها قد ترك الحكم على هذا المجرم لما يعلم من أن عقل الإنسان يقصر عن تصوره وأنّ يده تعجز عن تنفيذه وأن هذا المجرم لا يقدر على تحمّل هذا العقاب في هذه الحياة، فأرجأه إلى الحياة الأخرى؛ حيث يتولى بنفسه تنفيذ أحكامه في عباده المجرمين»[26].

2- الشيخ عدون : مستقبل الجزائر والمسلمين في وحدتهم:

يقول في مقال له بجريدة النور، تحت عنوان: "الجزائر المسلمة يجب أن يكون لإسلامها صوت مسموع: «بني الإسلام على دعامتين؛ كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فهو دين الوحدة دين التضامن والارتباط، دين يولف بين معتنقيه المستظلين برايته التي تخفق عليهم بالسيادة والعز، فإذا زال عنهم روح التضامن وانفصمت بينهم عرى الارتباط خرجوا من تحت رايته الوارفة الظلال فلفحتهم هاجرة النكبات وأحرقتهم رمضاء الخطوب والويلات، فحقت عليهم كلمة الشقاء وباؤوا بغضب من الله.

والجزائري كسائر المسلمين لا يتم له إسلامه ولا يحميه هذا الدين من شر يراد به ونكبة تنزل بساحته إلا إذا مد أسلاك التضامن إلى أبناء ملته في سائر بقاع الأرض وانضمّ إلى عائلة الإسلام الكبرى فكانوا وحدة متماسكة متحدة إحساسا وشعورا وآمالا وآلاما وكانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائره بالسهر والحمى»[27].

إذن لابد من وحدة متماسكة آمالا وآلاما، فلا مستقبل للمسلمين إذَا لم يتّحدوا في آمالهم، ولم يشعر بعضهم بآلام بعض. ويبقى الشيخ منذ النصف الأوّل من القرن العشرين المنصرم إلى أواخر حياته يدعو إلى هذه الوحدة؛ لأنّها هي صانعة المستقبل الزاهر للمسلمين. فها هو في الثاني من شوّال من عام 1423هـ/ 6-2-2002م يخطب أمام الهيئات الرسميّة والدينيّة بالقرارة فيقول: «... كلّنا مسلمون، وكلّنا يحبّ الخير لأخيه، وكلّنا قلب واحد ويد واحدة تسعى للخير وتعمل الخير ...، وكلّهم على قلب رجل واحد يتوادّون ويتحابّون، ويرحبّ بعضهم ببعض. وهذا مكسب عظيم ... .

لابدّ أن تكون هناك سلبيّات، ونحن جميعا نسعى لإزالتها، وهي شيء طبيعيّ في البشر ...»[28].

وفي عام 2003م يلقي كلمة في ندوة الأربعاء، يقول فيها:

«إنّ هذه الندوة الشرعيّة ضرورة ملحّة، وأَعُدُّها من المؤسّسات الكبرى. وإنّني أدعمها بكلّ قواي ... . ومن كان لا يرغب في الحضور؛ فليترك مكانه لغيره. وإذا كان في الإمكان أن يحضرها بعض إخواننا المحافظين؛ فليحضروا؛ توحيدا للصفّ والفتوى، كما هو الشّأن في مجلس عمّي سعيد، ومجلس باعبد الرحمن الكرثي»[29].

---

(26) – جريدة النور، عدد 24، المقال تحت عنوان: المثل الأعلى وكيف اتّخاذه عَلَمًا في مفازة الحياة.

(27) – جريدة النور، عدد 32.

(28) – عيسى الشيخ بلحاج، آخر ما قاله الشيخ عدّون، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 169.

(29) – نفسه، ص173.

إنّ الشيخ يدعو هنا إلى الوحدة بين المحافظين والإصلاح من بني مزاب. فهو لا يرى اليوم ما يدعو إلى التنافر بين الاتّجاهين، بل عليهما بالوحدة؛ وحدة الصف، وحدة الفتوى، وبالتبع وحدة المستقبل والطموح.

ويضيف في نفس تلك الندوة بصيغة الوصيّة، وكأنّه يودّع: «...، فأوصيكم جميعا بالإخلاص والصدق والمواظبة وعدم التفريط في هذه الندوة؛ فهي مشروع حياة أو ممات. وليكن مجلسكم هنا مجلسا إسلاميّا خالصا. وإنّنا لنرى ثمار هذا المجلس يانعة»(30). ثم يقترح أن تحرّر جلساته، وتمحّص، «ولو بتعيين موظّف يقوم بها. فلا مانع من طبعها وإصدارها للعالم الإسلاميّ؛ للاستفادة منها»(31).

وهاهو ذا في أواخر أيّامه، في أكتوبر 2004، وأمام طلبة المعهد الذي أحبّهم وأحبّوه، ينادي فيهم: «أيّها المزابيّون، ويا أيّها القائمون على هذه المشاريع العلميّة؛ إنّنا لا نفرّق بين مزابيّ وغيره، ولا بين إباضيّ وسواه. فالمعهد للجميع، وهو يعلّم الجميع الإسلام الصحيح الخالي من كلّ غثّ، إنّه الإسلام الذي نطبّقه وندعو إليه»(32).

إنّه نداء موجّه للمزابيّين، مع أنّ في طلبة المعهد من هو غير مزابيّ؛ ليكونوا المبادرين دوما إلى الوحدة الإسلاميّة، الحريصين دوما عليها. فالإسلام -كما سبق أن ذكر- بُني على دعامتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة. فهو دين الوحدة، دين التضامن والارتباط، وكلّ ذلك تطلّعا إلى المستقبل الإسلاميّ الواعد.

3- التجديد والتغيير، وروح المبادرة عند الشيخ عدّون:

إنّ كلّ من يرى إلى المستقبل بأمل، ويعمل من أجل المستقبل الأرقى؛ لا يكون إلاّ مجدّدا ملحّا على التغيير، محتضنا لكلّ المبادرات، لا يقصي مبادرا ولا مبادرة. وهذا شأن شيخنا عدّون، كان شديدا على الجامدين، ملحاحا على المتثاقلين، يطلب التغيير، ويدعو إلى التجديد.

لنستمع إليه يتحدّث عن مجالات التطوير والتجديد ونبذ الجمود، في مقاله بجريدة النور، تحت عنوان: الجمود وكيف يجب على الأمّة الاتّقاء منه:

«قلنا: إنّ كل ما سوى الدين الحنيف من طرق الإصلاح و نظم الاجتماع ووسائل المعاش خاضع لناموس التطور، يجب أن يساير الوقت و يماشي الظروف لا يبقى متأخرا عنها، كما أنّه لا يتقدمها، فكل قديم تركه الوقت و أعقبه وكان غير صالح لأن يتمشى مع روح العصر؛ وجب دفنه و إلحاقه بعالم الفناء. لكنّ الجامد الذي أهمل عقله ولم يصرفه في التفكير المنتج يعسر عليه التفريق بين الدين الذي لا يعتريه تبديل أو تغيير وبين غيره مما يتدرج

---

(30) – نفسه، ص173-174.

(31) – نفسه، ص174.

(32) – نفسه، ص185.

في الإصلاح و الرقي بحسب الوقت، فيعطى للكلّ حكم الدين الثابت، ويطبق على كل من يسعى في إصلاح ما يجب إصلاحه مما ليس بدين حكم من بدّل و غير في الدين ... .

وبعد فإننا – كما قلنا أولا – لم نقصد بطرقنا هذا الموضوع فتح عقول هؤلاء و أفهامهم لهذه الحقائق، فذلك مما لا مطمع لنا فيه ضرورة أنهم أغلقوا عن أنفسهم جميع المنافذ التي يتسرب إليهم منها نور النصح و الإرشاد، وإنّما قصدنا أن يفهمهم الناس وينتبهوا لما انطووا عليه من أغراض سافلة؛ حتى لا تروّج عليهم دسائسهم، على أن العاقل لا يحتاج لهذا التنبيه؛ فإن له من نور عقله ما يعصمه من الوقوع في أشراكهم المنصوبة. والله ولي التوفيق»[33].

على هذا المنوال كانت أكثر مقالاته في الجرائد اليقظانيّة «تصبّ جميعها في بوتقة إصلاح المجتمع وبعثه من رقدته الطويلة»[34].

لقد كان الشيخ عدّون مرنا في إدارته، وهذا شأن المتطلّع إلى الجديد وإلى المستقبل، ولذلك أثار إعجاب المحيطين به والأقربين منه. فهذا الدكتور محمّد ناصر يقول: «والأعجب في الأمر أنّه كان لا يتمسّك برأيه إذا رأى الأغلبيّة لا توافقه، بل كان يقول صراحة: أنا مع الجماعة فيما ترى؛ ولو خالفَتْ رأيي الشخصي». ويعلّق الدكتور محمّد ناصر قائلا: «فما عرَفْت منه طوال هذه المدّة (مدّة أحد عشر عاما قضاها الدكتور طالبا ثم مدرّسا في معهد الحياة) إلاّ أنّه المشجّع الأقوى لكلّ المبادرات الساعية إلى الرفع من مستوى المعهد،ماديا ومعنويا، مناهج وبرامج لا يتحجر على طريقة تقليدية متبعة، ولا يجمد على مقرر معين، ولا يتصلب لرأيه ونظريته ...»[35].

ويبدو أنّ الشيخ كان منذ بداية شبابه قويّا مصرّا على التغيير والتجديد والتطلّع إلى مدرسة تصنع مستقبل الأمّة. لذلك كان أمله الكبير؛ التطوير في المناهج، والتجديد في أساليب التعليم. فقد ألحّ على شيخه إبراهيم بيّوض القيام بإصلاح التعليم الذي «كان يشكو عقما وجمودا. وكانت النتيجة ... أن تأسّس معهد الشباب»[36].

ولم يكن ليتأسّس؛ لولا مطالبة الشيخ عدّون أستاذه بالتجديد، يقول الدكتور محمّد بوحجّام: «... طالَبه بكلّ إلحاح، وصل إلى حدّ التلويح بالانفراد بالمبادرة التي قد يندم الشيخ بيّوض بعدها على عدم الاستجابة ... فقام الشيخ فلبّى رغبة تليمذه، فأسّس المعهد في شوّال 1343هـ/ 1925م»[37].

---

(33) – جريدة النور، العدد 47.

(34) – محمّد بن أحمد جهلان، الشيخ عدون والكتابة الصحفية(مدخل إلى مقالاته)، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 242.

(35) – محمّد صالح ناصر، الشيخ عدون الأستاذ المربي، ضمن كتاب بوحجّام، الشيخ عدّون، 118.

(36) – بوحجّام: الشيخ عدّون، 137.

(37) – نفسه، 137.

ويعلّق بوحجّام على هذه الرغبة الملحّة في التجديد والتطوير؛ بأنّها الحقيقة التي نبّه الشيخ عدّون إليها «وهي أنّ التطوّر والتجديد ضروريّان لضمان البقاء والاستمرار. وكلّ من أصمّ أذنيه عنها، أو صادم هذه الطريقة؛ عرّض المجتمع لعاقبة وخيمة»[38]. إنّها إذن الرؤية المستقبليّة التي تنطلق من الروح المتطلّعة المتفائلة المجدّدة القابلة للتطوير، ولا تكون أبدا من عكسها.

لقد أمضى الشيخ عدّون حياته «واقفا دائما بجانب الراغبين إلى التطوير والتجديد والتغيير، يردّ عنهم دعاوي المعارضين لذلك، ويصدّ عنهم هجومهم ووأدهم لطموحهم»[39].

لقد كان مرنا في التسيير، يفتح المجال للمبادرات، ويمنح الفرص للعاملين؛ كي يشاركوا في بناء المجتمع[40].

4- المستقبل ومعهد الحياة:

ظلّ الشيخ عدون مجاهدا ومرابطا في معهد الحياة لأكثر من سبعين عاما، يقود سفينته، ويرعى نموّه، ويخطّط لمستقبله. فكان لا يقبل له تقهقرا، ولا يرضى له تراجعا، وكأنّي به أوّل من يشعر بتقدّمه إن تقدّم، وأوّل من ترتعد فرائسه لأوّل تراجع أو خمول. فهو لا يريد المعهد إلا متقدّما يخطو إلى المستقبل، يتطوّر، يجدّد، يبادر ويتقدّم. ولذلك عجبت من الصراحة والصرامة في هذه الرسالة التي بعثها إلى أستاذه إبراهيم بيّوض الذي غاب عن المعهد بسبب سفر طارئ إلى الشمال الجزائريّ، فرأى التراجع عن الإصلاح الذي أُدخل في التعليم آنذاك، وشعر بالخطورة، فكانت الرسالة التي أنهاها بالقول الصريح القويّ: «... فالمطلوب منك أن تعجّل بالرجوع، فقد طال مكثك ... [إلى أن يقول:] فإن فعلت؛ فقد أدّيت الواجب، وإلاّ فسلام على العلم والقرارة وميزاب والجزائر»[41].

إنّ الشيخ كان يحمل همّ العلم والقرارة ومزاب والجزائر، إنّها مسؤوليّة ثقيلة ولا ريب. فكان يرى المعهد منقذا للجميع يتطلّع إليه رائدا لمسيرة مستقبل الإسلام والجزائر، يُقتدى به للوصول إلى الغايات.

ومثل هذا الشعور في النصف الأوّل من القرن الماضي تجاه المعهد؛ نجد الشيخ عدّون قلقا في أواخر القرن عام 1995 إذ عبّر وبقوّة في اجتماع للنظر في النهوض بمعهد الحياة مناهجَ وبرامج، فقال: «لو أموت والمعهد على هذا الحال؛ فإنّي أموت بغصّة»[42].

فعلى أيّة حال مات الشيخ؟ ويقينا أنّه مات وهو يتطلّع إلى مستقبل مُشرقٍ للمعهد.

إنّ الذي يحمل الآمال الجِسام، ويتطلّع إلى المستقبل دوما؛ لا يقتنع بالقليل، وقد قال المتنبّي قديما:

كلما كانت الآمال كبارا تعبت في مرادها الأجسام

---

(38) – نفسه، 127.

(39) – نفسه، 139.

(40) – نفسه، 134.

(41) – عدون: معهد الحياة، 43.

(42) – بوحجّام: الشيخ عدّون، 98.

ومع أنّه كان يرى خرّيجي المعهد من نعم الله يراهم «منبثّين على مراكز قيادة الأمّة هنا وهناك، داخل القرارة العزيزة وخارجها، وداخل الوادي الأمين وخارجه، وداخل الجزائر الحبيبة وخارجها، في المساجد والمنتديات، وفي المدارس والثانويّات، وفي المعاهد والجامعات، يشغلون مختلف ميادين الحياة»[43]، إلاّ أنّ روحه تتطلّع إلى المزيد وإلى المستقبل، إذ يقول في آخر كتابه عن تاريخ المعهد: «تلك نتائج المعهد في ماضيه وحاضره، فماذا أعددنا لحياته المقبلة التي نرجو أن تكون أوفى وأسعد وأطيب وأزهر، وأن تكون ممتدّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»[44].

أيّ حياة مقبلة يتمنّاها الشيخ لمستقبل معهد الحياة؛ وقد قارب المائة عند تساؤله هذا؟ يقول الشيخ مخاطبا طلبة المعهد في آخر لقاء له بهم يوم 20 أكتوبر 2004، أي قبل سبعة أيّام من وفاته: «أحسنوا المراجعة والمطالعة، طالعوا الكتب، خاصّة كتب اللغة العربيّة التي تحتاج إلى إحياء وبعث من جديد. وقد كانت العربيّة في المعهد قويّة، وإنّني لأرى اليوم ضعفا، ويجب أن يعود إليها مجدها من أساتذة أكفاء يتقنونها فنًّا وإلقاء ...، ولقد اشتهر المعهد بالأدب واللغة العربيّة، وأرى هذه الشهرة بدأت تضمحلّ وتتقهقر. وعلى المعهد أن ينهض ويتقدّم؛ بالتركيز على كتب الأدب والنحو ودواوين الشعر ...»[45].

وقبل لقائه بالطلبة؛ كان في يوم 25 سبتمبر 2004 قد التقى بأساتذة المعهد، فعبّر عن سروره بالاجتماع بهم، وقال: إنّ ذلك «... من أجل تقويم ما تقدّم، والنظر والتفاؤل في المستقبل الذي يتقدّم»[46].

إنّ الشيخ يودّع، ومع ذلك؛ فهو يرنو ببصره من خلال أساتذة المعهد الأكفاء الغيورين؛ إلى المستقبل، ويخاطبهم قائلا في آخر لقاء له بهم: «عوّلوا على أنفسكم ... فالنجاح في الشهادة نجاح ظاهريّ (أي نجاح الطلبة في امتحانات شهادة البكالوريا). إنّنا نريد الوصول إلى ما هو أكبر وأسمى من ذلك؛ إلى مرضاة الله تعالى، فهنالك مسافات كبرى علينا أن نقطعها»[47].

ثم يحثّهم قائلا: «أرونا الفخر في الدنيا والآخرة ...، ولنستمر في هذا الطريق ولا نرتبْ»[48].

ثم يودّعهم بالحديث عن مشروع الحياة العظيم، فيقول: «ومشروع الحياة العظيم الذي يشمل المعهد والداخليّة؛ مشروع لا تقوى عليه إلاّ الدول، ولكن الأمّة تقوم به، وسيقوم بإذن الله، وبفضل سخاء المحسنين من

---

(43) ــ عدون: معهد الحياة، 85.

(44) ــ نفسه، 86.

(45) ــ عيسى الشيخ بلحاج، آخر ما قاله الشيخ عدّون، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 187.

(46) ــ نفسه، 177.

(47) ــ نفسه، 179.

(48) ــ نفسه، 180.

الأمّة ...، إنّها كلمات صادقة أَنْحَتُها لكم من صميم الفؤاد ... وربّما لا ألقاكم بعد لقائي هذا، وهي ذكرى أذكّركم بها، والذكرى تنفع المؤمنين»[49].

والمؤمن الصادق بنور الله يبصر. فها هو مشروع الحياة العظيم يرى النور، نحتفل بافتتاحه في أيّامنا هذه، هو صرح عظيم يريده الشيخ عدّون عظيما؛ مبنًى ومحتوًى، ولعلّه كان يتطلّع بعد هذا إلى جامعة الحياة، خاصّة بعد مشروع روضة الحياة؛ الذي أصبح هو الآخر واقعا ملموسا، فلا أستبعد أن يكون قد أسر بهذا لبعض ثقاته والمقربين منه ، فإن لم يفعل بلسان مقاله ، فلسان حاله يصرح بهذا ويدعو إليه فهل نحن فاعلون أيها العلماء ، أيها المحسنون، أيها المجتمع الكريم .

إنّ مشروع روضة الحياة هو مشروع مستقبليّ واعد بلا ريب، ذهب الشيخ عدّون وتركه للأجيال، فمثله ومثلهم، كذلك الأب الذي ترك أرضا لأولاده، وقال لهم: لقد دفنت لكم فيها كنزا فالتمسوه، فراحوا يقلّبونها بحثا ثم حرثا ثم زرعا ثم كنزا.

وربّما أيضا يمكن تشبيه هذا العمل الذي أنهى به الشيخ حياته؛ بما ورد في حديث الفسيلة للرسول صلّى الله عليه وسلّم-: «إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[50]،فهذا الشيخ عدّون يغرس فسيلته، وقد قامت ساعته، ليترك لنا باقي العمل للباقي من حياتنا، فهل نحن فاعلون؟

إنّها رسائل تركها الشيخ عدّون ترنو إلى المستقبل القريب والبعيد، وتدعو الأجيال إليه.

5- الشيخ عدّون ومستقبل الفتاة:

من المعروف أنّ الشيخ من أوائل المنادين بتعليم البنت في مزاب، تطلّعا إلى مستقبلها، ومن خلالها إلى مستقبل مزاب والوطن؛ «ورغم معارضة فريق عريض من الناس لفكرة الشيخ عدّون، ومنهم بعض رجال الإصلاح، إلاّ أنّه أصرّ على رأيه، واقتنع أنّه صواب ورشاد، وبدأ التطبيق منفردا؛ بإدراج بنته في المدرسة، ولم يأبه بقوّة المعارضة، ثم استبان للنّاس رشد ما فعل ...»[51].

ظلّ الشيخ عدّون يدعو إلى تعليم البنت ورفع مقامها ضمن حدود الدين. ففي شهر أفريل من 1937؛ كتب مقالا في مجلّة الأمّة بعنوان: "في سبيل إعزاز الدين. الشباب المصري يعلن اليوم جهاده الديني فينتصر، كما أعلن أمس جهاده السيّاسي فانتصر".

يقول فيه: «هال طلبة الجامعة المصريّة وطالباتها ما يرون من إهمال الدين والإدبار عنه، ومن انتشار الفساد وعموم الفوضى في الأخلاق. وأفزعهم شبح المستقبل الرهيب الذي هُمْ رجاله ...، فقدّم تلاميذ كليّات الجامعة

---

(49) – نفسه، 181.

(50) – رواه أحمد.

(51) – مصطفى باجو، الشيخ سعيد بن بلحاج، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 215.

عرائض ومذكّرات إلى مدير الجامعة وإلى عمدائها، وعقدوا مظاهرات، وقابلوا رئيس مجلس الوصاية، وأقاموا حربا عوانا ضدّ الفساد وإهمال الدين، ومطالبهم هي:

1- أن تدرّس العلوم الدينيّة في جميع الكلّيّات ...

2- أن يفصل بين الشابّات والشبّان في الجامعة ...

3- أن تعلّم الفتاة تعليما مؤسّسا على التقوى والورع رحمة بها كفتاة، ورحمة بها كأمّ من أمّهات المستقبل؛ تعتمد عليها نهضة مصر إلى درجة كبيرة.

وفي ختام تغطيته لهذه الحركة الطلاّبيّة يوضّح الشيخ هدفه منها، فيقول: ونحن الآن نبتهج بهذه الحركة الطيّبة، ونقدّمها فيما كتبناه وفيما ننشره كبشارة لقرّائنا الذين يهمّهم أمر دينهم، ويودّون أن يروا كلمة الله هي العليا، ...»[52].

كان الشيخ عدّون يتطلّع إلى الإصلاح بشموله، فلم يكن يُقصي من ذلك أحدا، ومن هنا وجدناه يهتمّ بالبنت؛ حتى تلك التي تدرس في الجامعة بعيدا بمئات الأميال عن الجزائر ومزاب، كأنّه يقول للأجيال وللشباب الذين كان يخاطبهم: انظروا إلى أحوالكم وانهضوا كنهضة شباب مصر طلبة وطالبات؛ مع مراعاة عدم الاختلاط كما طالب بذلك شباب مصر في حركتهم.

ويبقى الشيخ عدّون مع البنت إلى آخر حياته؛ إذ معها تنتهي سلسلة لقاءاته. ففي يوم 31 أكتوبر 2004 (أي يوما واحدا قبل وفاته) يجتمع بطالبات متوسّطة وثانويّة الحياة، ويخاطبهنّ: «... أيّتها البنات الفضليات؛ إنّكنّ لم تخلقن لهذه الحياة الدنيا ... . والعلم الذي يضمن لنا المستقبل الدائم؛ إنّما هو علم الله تعالى، ... جئتن إلى هذه المؤسّسة لتتعلّمن العلم الدينيّ أوّلا، ثم مختلف العلوم الدنيويّة الأخرى والمهنيّة ... .

أيّتها البنات العزيزات، ويا نساء المستقبل؛ إنّ هذا المجتمع لا يقوم إلاّ عليكنّ، نعم هو يقوم على جناحين، على الرجل والمرأة، ولكن على المرأة أكثر.

فخدمة البنت في دارها عبادة، وعملها في المجتمع عبادة؛ إذا كانت أحسنت التعلّم ...، حتّى إذا قيل: ممن الرّجال؟ فيقال: من بنات تعلّمن في مدرسة الحياة ...»[53].

إنّ الشيخ يتطلّع إلى المستقبل مع فتاة متعلّمة أمر دينها، متقنة لشؤون الحياة؛ فهي مع الرجل جناحان يطير المجتمع بهما معا إلى الآفاق البعيدة.

وفي ختام هذه الدراسة السريعة عن المستقبل عند الشيخ عدّون؛ أجد الشيخ يأسف كلّ الأسف لمفارقة الحياة، أي مشاريع الحياة؛ وليست حياته هو، ويعبّر عن ذلك في لقائه مع أساتذة المعهد في 20 أكتوبر 2004:

---

(52) – مجلّة الأمّة، عدد 116.

(53) – عيسى الشيخ بلحاج: آخر ما قاله الشيخ عدّون، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون بأقلام أصدقائه، 192-194.

«وإنّني لآسف كلّ الأسف أن أفارق هذا المشروع، وأرجو أن أكون قد أخذت حظّا من الحياة، ... قلبي يجيش بالعواطف، كيف أفارق المعهد وهذه الجلسات معكم ... وجلسات الإدارة ...»[54].

هذه العبارات تدلّ على تفائله وتطلّعه نحو مستقبل المعهد ومستقبل مزاب ومستقبل الجزائر، فهو يلحّ أن يكون المعهد أداة إصلاح وهداية للمجتمع الجزائريّ بعامّة، ومجتمع مزاب بخاصّة. فهل نحن فاعلون؟

ولا نغادر المستقبل عند الشيخ عدّون دون أن نذكر عبارته القويّة: «إنّنا قد أوجدنا الحلول لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا الحلول لعصركم. ثم قال في مناسبة أخرى: إنّنا نعيش عصرا متطوّرا، ولذا فنحن في حاجة إلى مدرسة متطوّرة»[55].

إنّها نظرة إلى المستقبل لا تحدّها حدود، ولا يقف دونها حاجز.هو باب مفتوح على مصراعيه أمام كلّ المبادرات، في حدود المطمح الأسمى؛ رضوان الله تعالى.

مجمل القول في الختام : هكذا بدا لي الشيخ عدون في التاريخ وفي المستقبل، ملتفتا دوما إلى التاريخ ، تاريخ السيرة النبوية والخلفاء الراشدين بالدرجة الأولى، وتاريخ مزاب والجزائر المعاصر بعد ذلك ، مستلهما منه العبر والعظات ، متطلعا به إلى المستقبل المشرق لمعهد الحياة ومن خلاله إلى مزاب والجزائر والأمة الإسلامية قاطبة .

(54) – عيسى الشيخ بلحاج: آخر ما قاله الشيخ عدّون، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 189.

(55) – محمّد بابا عمّي: الشيخ عدّون قطب المخلصين، ضمن كتاب بوحجّام: الشيخ عدّون، 239.